الوضع والاستعمال عند الأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح من خلال كتابه "الخطاب والتخاطب"

فتيحة لعلاوي
جامعة الجزائر 2 - الجزائر
lalaouifatiha@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2018/11/19 تاريخ القبول: 2018/12/06

الملخّـص

حاولنا في هذه الورقة تسليط الضوء على جانب من الأعمال العلمية للأستاذ عبد الرحمن الحاج صالح، أحد كبار اللغويين ومن أبرز أعلامها المثقفين، الذين كانت لهم مساهمة متميّزة في الكتابات اللغوية ومشاركة فعالة في الحياة الثقافية. ويتمثل هذا في إعادة قراءة أهم المسائل اللّغوية المرتبطة بالوضع والاستعمال من خلال كتابه "الخطاب والتّخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية"؛ محاولين تحديد مفهوم الوضع والاستعمال، وتمييزه الفاصل بين اللغة والكلام، وكذا الحروف أو الأصول في الوضع والاستعمال، والمضمر في نظرية الوضع والاستعمال، وختمنا هذا المقال بأسلوب الخبر والإنشاءّ.

الكلمات المفاتيح:

الوضع - الاستعمال - الخطاب - التخاطب - عبد الرحمن الحاج صالح.

المؤلف المراسل: فتيحة لعلاوي، البريد الالكتروني: lalaouifatiha@yahoo.fr

Le code et l'usage chez Abderrahmane Hadj Salah à travers son livre «al-khitāb waal-takhātūb»

Résumé

Dans cet article, Nous avons essayé de mettre en évidence une partie des travaux réalisés par le professeur Hadj salah, un des grands linguistes et parmi les savants cultivés les plus distingués, qui a eu une contribution distincte à travers les ouvrages linguistiques et la participation active à la vie culturelle. Nous avons essayé de soulever certaines questions traitées dans son livre «al-khitāb waTakhātūb fi nadariyāt al- Wadea wa al- isti'māl al -'arabiya», en essayant de traiter brièvement ; le code et l'usage de la langue, la distinction entre langue et parole, les phonèmes, l'implicite, et al-ẖabar et al- 'inšā.

Mots clés:

Code - usage - discours- conversation - Abderrahmane Hadj Salah.

The Code and use according to Abderrahmane Hadj Salah through his book «al-khitāb waal-takhātūb»

Abstract

In this paper, we tried to shed light on one of the scientific works of the Professor Abderrahmane Hadj Salah, one of the eminent linguists, and among the great intellectual, who have made a very significant contribution in linguistic works with his active participation in a cultural life. By providing a new reading on the most important language questions related to the code-use, through his book "Al khitāb wa atakhātūb fi nadariyat al Wadea wa al istimal al arabiya", we discussed the code and use of a language, the distinction between language and parole, phonemes, the implicit, and al khabar wa al inchaa.

Key words:

Code - use - discourse - conversation - Abderrahmane Hadj Salah.

مقدمة

تعد اللّسانيات التداولية Linguistique pragmatique من أحدث الاتجاهات اللّغوية التي ظهرت وتطوّرت في مجال الدّرس اللّساني الحديث والمعاصر، إذ بعدما كانت اللّسانيات تقصر أبحاثها على الجانبين البنوي والتوليدي، ووصف وتفسير النّظام اللّغوي ودراسة الملكة اللّسانية المتّحكمة فيه (جانب توليدي) في إطار ما يُصطلح عليه بـ "لسانيات الوضع" جاءت اللّسانيات التّداولية لتعالج في مقابل ذلك ما يسمى بـ "لسانيات الاستعمال" من خلال دراسة اللّغة أثناء الاستعمال في مقامات مختلفة وبحسب مقاصد المتكلمين وأحوال المتخاطبين، بغية إنجاح العملية التفاعلية التواصلية. ومن هذا المنطلق يمكننا طرح الإشكال الآتي: ما هي أهم القضايا اللّغوية التي عالجها الأستاذ عبد الرحمن حاج صالح لتأسيس هذا المنحى التداولي في مُؤَلَّفه الموسوم "الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية"؟

1- مفهوم الوضع والاستعمال

ميّز النّحاة العرب بين مستويين من اللّغة جيّدا "بين كلّ ما هو راجع إلى الوضع أي ما يخصّ اللّفظ الموضوع للدّلالة على معنى، وهذا المعنى المدلول عليه باللّفظ وحده، ومن ثمّ ما يخصّ بنية هذا اللّفظ بقطع النّظر عمّا يؤدّيه في واقع الخطاب... ومن جهة أخرى ما هو راجع إلى استعمال هذا اللّفظ؛ أي إلى تأديته للمعاني المقصودة بالفعل وهي الأغراض" (الحاج صالح، 1997، ص36)، ويضيف الأستاذ الحاج صالح قائلا: "فبنظرهم إلى الوضع معزولا، تمكّنوا من إيجاد الجامع؛ أي عما يجمع بين أفراد الجنس الواحد، بالاعتماد لا على صفاتها المميّزة فقط التي تجعلها تندرج في هذا الجنس، بل بالنظر في هيئتها وزنتها" (الحاج صالح، 2012، ص37)، هذا فيما يخص الوضع من حيث التحديد، أما مصطلح الاستعمال بحسب منظور النّحاة القدامى، فقد ربطه الحاج صالح بمنطق الدّلالة عموما الذي مجاله البلاغة، فيقول: "وبنظرهم إلى الاستعمال، تمكّنوا من دراسة دِلالات

الألفـاظ والتركيـب بحسـب السّـياق، لكـن بمراعـاة المعـاني الوضعيـة، ثـم ينظـر الباحـث في تحوّلها حسـب مـا يقتضيـه العقـل في ذاتـه؛ كدلالـة المعنـى أو حـال الخطـاب يـأتي دور المنطـق الـدّلالي ومنطـق التبليـغ (communication) وهـو ميـدان مـا يسـمّيه علماؤنـا بالبلاغـة أو البيـان في أقـدم أسـاميهما" (الحـاج صالـح، 1989، ص262) وعـلى هـذا فـإنّ الوضـع والاسـتعمال وجهـان لعملـة واحـدة، الغايـة منهـما تحقيـق الفعـل التـداولي، وهـذا مـا أكـدّه عبـد القاهـر الجرجـاني في سـياق ربطـه مسـألة الوضـع بالاسـتعمال، "أنّ الألفـاظ المفـردة التـي هـي أوضـاعُ اللّغـة، لم توضـع لتُعْـرَفَ معانيهـا في أنْفُسِـها، ولكـن لأن يُضـمَّ بعضُهـا إلى بعـضٍ، فيُعـرف فيـما بينهـما فوائـد. وهـذا علـمٌ شريـف وأصـلٌ عظيـم" (الجرجـاني، 1989، ص539). كـما يـرى أنّ حكـم اللّفـظ مـع مـا وُضـع لـه" (الجرجـاني، 1989، ص540) وتجـدر الإشـارة إلى أنّ الأسـتاذ عبـد الرحمـن الحـاج صالـح اسـتعمل مصطلـح (الاسـتعمال) كمقابـل لـ «pragmatique» حسـب رأي الأسـتاذ الطاهـر لوصيـف (لوصيـف، 2006، ص08)، إذا علمنـا أنّ التداوليـة يعنـي "دراسـة العلامـات بمسـتعملها" (نحلـة، 2006، ص91).

2- تمييزه الفاصل بين اللّغة والكلام

لقـد ربـط الأسـتاذ الحـاج صالـح الفعـل كحـدث بالـكلام كـما ربـط اللّغـة كنظـام مـن الأدلـة بالوضـع، انطلاقـا مـن قـول النّحـاة وخاصـة سـيبويه "اعلـم أن الفعـل... إنمـا يُذكـر ليـدّل عـلى حـدث... وفيـه بيـان عـلى مـا مـضى ومـا لم يمـض منهـن، كـما أنّ فيـه اسـتدلالات عـلى وقـوع الحـدث... إذا قـال: ذهـب أو قعـد عُلـم أنّ للحـدث مكانـا وإن لم يذكـره كـما عُلـم أنّـه كان لـه ذهـاب" (سـيبويه، 1408هـ - 1988، ص15) فالفعـل بالنسـبة إلى الأسـتاذ الحـاج صالـح؛ هـو مـن أهـم أركان الـكلام الـدّال عـلى الحـدث وكل حـدث يـراه بالـضرورة يحصـل في زمـان معـيّن ومـكان معـيّن.

وأمـا الـكلام كاسـم مصـدر لفعـل تكلّـم فهـو حـدث، وهـو الآخـر لابـد أن يكـون لـه زمـان ومـكان معيّنـان" (الحـاج صالـح، 2012، ص43). ثـم يواصـل الحـاج صالـح في التّمييـز بـين الـكلام كفعـل وكحـدث، بقولـه: "وبهـذا يفـترق الـكلام كفعـل وكحـدث

عـن الجهـاز الـذي يسـتعمله المتكلـم وهـو اللّغـة؛ إذ هـو أداة لتبليـغ الأغـراض وبمـا أنّهـا نظـام مـن الأدّلـة المتواضـع عليهـا، لا تـراد لذاتهـا، بـل للانتفـاع بهـا كأداة تبليـغ" (الحـاج صالـح، 2012، ص43). وهـي نفـس الفكـرة التـي يشـير إليهـا في موضـع آخـر، والمتعلقـة باللّغـة كنظـام مسـتقل بذاتـه مـن حيـث الوضـع، مـن جهـة، وكأدّلـة ضمـن عمليـة التبليـغ والتـداول والإفـادة، بقولـه: "فالنّظـام المنطقـي غـير النظـام اللّغـوي الـذي خُلـق للإفـادة أي لتبليـغ أغـراض المتكلـم للمسـتمع communication فهـو آلـة للتبليـغ جوهـره نابـع لمـا ولي مـن أمـر الإفـادة، فهـو إلى قوانـين فـنّ المواصـلات أقـرب منـه إلى قواعـد المنطـق" (الحـاج صالـح، 2005، ص50).

كـما نجـده يتعمـق في نفـس الفكـرة مـن خـلال هـذا التمييـز -الـذي نـراه تمييـزا مبنيـا عـلى منطـق القدامـى مـن النّحـاة-، لمـا يتسـم بـه مـن الموضوعيـة المبنيـة عـلى أسـس المنهـج العلمـي، الـذي يتوخـى في تحليـل الأشـياء مبـدأ الاسـتدلال قصـد الوصـول إلى نتائـج حتميـة، مـن قبيـل قولـه "فالـكلام حـدث والأحـداث هـي أشـياء جزئيـة، لأنّهـا تـدرك بحاسـة السـمع كأصـوات فلـكل حـدث خصوصيـة. أمـا اللّغـة فهـي مـن الكليـات لأنّهـا غـير مدركـة بالسّـمع كوضـع كـما أنهـا ليسـت حدثـا، بـل هـي أداة مهيّـأة للاسـتعمال في كل الأوقـات وكل الظـروف" (الحـاج صالـح، 2005، ص50). مـن خـلال هـذا الـكلام يتبـادر إلى ذهننـا ذلـك التمييـز الـذي أشـار إليـه دي سوسـور الحاصـل بـين اللّغـة والـكلام؛ فاللّغـة مـن حيـث هـي كليـات غـير مدركـة بالسّـمع، بمفهـوم سوسـور الموجودة في الأذهـان التـي يصطلـح عليهـا بــ "الشّـكل" Forme[1] والـكلام هـو التأديـات المختلفـة لتلـك اللغـة Les diverses performances linguistiques، ومنـه فهـذا التمييـز ينـدرج في إطـار لسـانيات الجملـة، لأنّـه مـن الـضروري الانطـلاق مـن البنيـة الصّغـرى للـكلام، لتفسـير مـا هـو أكـبر مـن هـذه البنيـة، كي يكـون التحليـل العلمـي لعمليـة التخاطـب سـليما مبنيـا عـلى أسـس علميـة، وهـذا مـا قـام بـه الأسـتاذ الحـاج صالـح في تحديـد كل المفاهيـم التـي تنـدرج ضمـن نظريـة الوضـع والاسـتعمال.

وعلى هذا يمكن تمثيل هذا التصّور الذي يراه الحاج صالح فيما يتعلق بهذه

الثنائية، على النّحو الآتي:

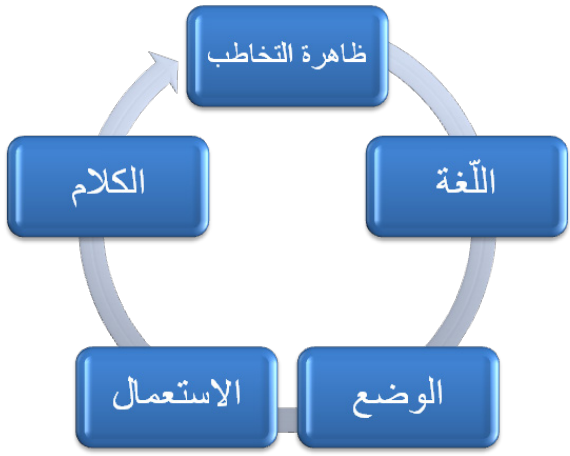

الشكل 1: ظاهرة التخاطب عند الحاج صالح

وفي السّياق ذاته يربط أستاذنا هذه الفكرة باهتمام النّحاة العرب بالدّلائل بصفة عامة، بقوله: "إنّ اهتمام النّحاة الأوّلين بالدلائل غير اللفظية، لا يقلل من اهتمامهم باللغة كوضع من أوضاع المجتمع، إذ هي جديرة بأن تدرس علميا كبنية أو نظام من الأدّلة تدل على معان، إلا أنّ استعمالها هو غير اللّغة (استعمال نظام من الأنظمة غير النّظام) بل هو الكلام كخطاب. وكان جديرا عندهم أيضا بالدراسة، كما يظهر من تحليلاتهم؛ لأنّه يخضع لعدد من القوانين الخاصّة ليست من جوهر اللّغة كنظام كما بيّنوه وكما سنراه" (الحاج صالح، 2012، ص45). ومنه نفهم من هذا النّص إقرار الحاج صالح إنّ النّحاة العرب لم يدرسوا اللّغة من حيث هي نظام من الأدّلة فحسب، وإنما كانت اهتماماتهم تشمل دراسة اللّغة كوضع (النّظام اللّغوي) تخضع لقوانين النّحو، إلى جانب دراسة اللّغة كوضع اجتماعي (الكلام كخطاب) الذي نسلك فيه قوانين خاصّة، يخضع لها كل من المتكلم والمتلقي، وهذا جانب من مقابلته لمصطلحي الوضع والاستعمال الذي يخص جوهر النّظام في كليهما. ومنه يمكن تمثيل هذا التقابل في الشّكل البياني على النّحو الآتي:

الشكل 2: الوضع والاستعمال عند الأستاذ الحاج صالح

ونجده في موضع آخر، يوضّح مصطلح الوضع من حيث إنه وجود صوري، معلّلا هذا الأمر بمقابلة كل من اللّغة والوضع، وللتمييز بينهما من حيث هذا الوجود، يقول: "إنّ الجانب الاستعمالي للغة هو الجانب المحسوس المُشاهد، المسموع وهو بالتالي ما يوجد من اللّغة في الواقع، أما الوضع فلا وجود له في هذا الواقع إلا مندمجا مع ما يُسمع ويُلفظ. فوجوده صوري لأنّه نظام للغة وإن كان يستحيل أن توجد أدلة تُفهم بهذا المستوى العالي جدّا من التجريد دون أن تُبنى على نظام" (الحاج صالح، 2012، ص73). وهذا يدل على أنّ "كل لغة تحتوي على نظامين وليس نظاما واحدا: نظام صوتي ونظام دلالي" (الحاج صالح، 2011، ص97).

3. الحروف أو الأصول في الوضع والاستعمال

وبعد توضيح صورية الوضع من حيث هو شكل وليس مادة على حدّ تعبير فرديناند ديسوسور La langue est une forme (DE SAUSSURE, 1997, p.16) non une substance، انتقل الحاج صالح إلى ربط مسألة الوضع بالحروف أو الأصول، مؤكدا أنّ الضمائر المبهمة أساسية للدلائل اللّغوية في وضع اللّغة، حيث يتساءل في سياق كلامه : "كيف يمكن أن تكون مدلولات الألفاظ مبهمة أي غير معيّنة؟ ولماذا قلنا بأنّ الإبهام هو صفة لازمة للتخاطب؟ ثم كيف تكون وسائل البيان

مبهمة وقد وُضعت للسان؟" (الحاج صالح، 2012، ص77). ويُجيب الأستاذ على أنّ "هذا التناقض يمكن أن يزول بجعل هذا الإبهام نسبيا. مع بقائه كصفة لازمة، وأن يكون من جانبين دون جانب" (الحاج صالح، 2012، ص77). وهكذا يسترسل الأستاذ في عرض وجوه الإبهام، من قبيل الإبهام ومفهوم النكرة والتنكير، حيث يقول إنّ العرب في" تحديدهم للإبهام[2] هو عام: "ما يقع على كل شيء"، لأنه يشمل هذه العبارات من جهة ونوعا آخر من أوضاع اللّغة لا يحتاج إلى ما سمّوه بالتمييز[3] (الحاج صالح، 2012، ص78).

ونجده كذلك يميّز بين هذين النوعين، بقوله: "فلنسّم الأوّل إبهاما بعدم التمييز والثاني إبهاما تنكيريا" (الحاج صالح، 2012، ص78)، مقرنا هذين النّوعين بالوضع والاستعمال، في قوله: "والجدير بالملاحظة أنّ لهذين النّوعين من الأوضاع غرضا واحدا في إبهامه وهو صلاحيته لأن يكون عاما في الاستعمال، وألا يختص في الوضع بشيء معيّن؛ مثل العدد من جهة وكلمة "كل" والضمير من جهة أخرى، فالضمير للمتكلم مثلا يجب أن يصلح لأيّ شخص يكون متكلما في أي خطاب وفي أي وقت وأي مكان، وإلا استحالت عملية التخاطب يُنظر: (الحاج صالح، 2012، ص82). في أكثر الأحوال، لاختصاص العنصر اللّغوي بحالة واحدة وقس على ذلك كل الأوضاع اللّغوية" (الحاج صالح، 2012، ص78).

4. أصناف الأسماء وضعا واستعمالا

في سياق تدّرجه في أقسام الكلام من حيث الوضع والاستعمال، يشير الحاج صالح إلى مسألة الأسماء المبهمة والمختصة، حيث يرى أنّ أصناف الأسماء من حيث الابهام التنكيري ثلاثة أصناف (الحاج صالح، 2012، ص81):

- المبهم في الجنس وهو ما يسّميه سيبويه الاسم العام؛ وهذا يزول بعلامة في اللّفظ. ويدخل فيما سمّاه سيبويه الأسماء المختصة[4].

- المبهم في الوضع فقط وهو غير مبهم أبدا في الاستعمال ولا يزول الابهام عنه إلا بقرينة، وهو ما سمّاه سيبويه بالدلائل المبهمة (يُنظر: الحاج صالح، 2012، ص82).

وهـي في الوضـع مبهمـة في حـدّ ذاتهـا.

- المبهـم إبهامـا مطلقـا أي بـدون الانتـماء إلى جنـس ويـزول إبهامـه، مثـل اسـم الجنـس عنـد الإضافـة إلى معرفـة. وهـذا الصّنـف مـن الابهـام هـو مـن نـوع إبهـام حـروف المعـاني، وهـو إبهـام مطلـق (الحـاج صالـح، 2012، ص83).

5. العلم والاسم الخاص عند سيبويه

ينطلـق الأسـتاذ عبـد الرحمـن الحـاج صالـح في مقـام توضيـح هـذا النّـوع مـن الأسـماء، مـن سـؤال جوهـري مفـاده؛ كيـف يمكـن أن يكـون العَلَـم نكـرة في الوضـع أولا ثـم بمـا يصـير معرفـة أي اسـما لمعيّن؟ ويجيـب عـن هـذا التسـاؤل اسـتنادا إلى قـول سـيبويه: "العلـم معرفـة بنفسـه لا بـشيء دخـل عليـه أو فيـما بعـده" (سـيبويه، 1988، ص309). "فـلا علامـة لفظيـة تميّـزه عـن غـيره" (الحـاج صالـح، 2012، ص83)، ويضيـف في ذات السـياق "فإطلاقـه عـلى فـرد معـيّن، يعتـبر ذلـك النّحـاة بأنـه صـار معرفـة بالوضـع الخـاص" (الحـاج صالـح، 2012، ص83)، وبغيـة توضيـح هـذه الفكـرة، يسـتحضر الأسـتاذ قـول العلامـة الـرضّي الاسـتراباذي مـن شرح الكافيـة في قولـه: "قـال (ابـن الحاجـب): "المعرفـة مـا وُضـع لـشيء بعينـه"... فالمعنـى: مـا وُضـع ليسـتعمل في واحـد بعينـه سـواء كان ذلـك مقصـود الواضـع كـما في الأعـلام أو لا كـما في غيرهـا" (الحـاج صالـح، 2012، ص84)، كـما يشـير في سـياق كلامـه إلى أنـواع الأسـماء، فيذكـر اسـم العلـم الـذي يدخـل عليـه العـدد وكيـف يتحـوّل مـن معرفـة إلى نكـرة، فيقـول: "ومعنـى ذلـك أنّ العـدّة لا تدخـل عـلى العلـم، فـإذا أدخلـت عليـه صيّرتـه نكـرة ولذلـك يمكـن أن تدخـل عليـه حينئـذ الألـف والـلام كـما تدخـلان عـلى كل نكـرة معـدود، فتصـير معرفـة لا كـما كان عليـه العلـم، بـل كأي اسـم عـام غـير علـم، وذلـك مثـل: "جـاء زيـدون ثلاثـة". وجـاءني الزيـدون الثلاثـة "(وهـذا موجـود في جميـع اللّغـات السّـامية والهنديـة الأوروبيـة أيضـا)" (الحـاج صالـح، 2012، ص85) إلى جانـب هـذا النـوع، يذكـر أسـتاذنا مختلـف الأشـكال التـي يـرد فيهـا اسـم العلـم، مـن قبيـل الاسـم المعـرّف بالألـف والـلام واسـم الجنـس، والمضـاف إلى العلـم ومـا فيـه الألـف والـلام، والضمائـر مـن حيـث أنهـا تضمـر أسـماء

نعلمها من سياق الكلام.

6. المضمر في نظرية الوضع والاستعمال

ودلالة المضمر حسب الأستاذ الحاج صالح "تتم بحضور المتخاطبين وهذه دلالة مشاهدة الحال أو تقدم الذكر للغائب" (الحاج صالح، 2012، ص88). كما يشير الأستاذ إلى أهمية وظيفة المضمر في عملية التبليغ وما تحققه من اقتصاد لغوي في الاستعمال، بقوله: "وأهم شيء أثبته سيبويه هو وظيفة المضمر، فهو ليس مثل الاسم والفعل يدل كل واحد منهما على مدلول مباشرة أي على مسّمى أو على حدث في حين حدوثه، بل يدل المضمر على اسم مسّمى يقوم هو مقامه في الخطاب. كما قال سيبويه: "جاء لمعنى الأسماء [...]. وله صفة أخرى مثلها في الأهميّة وهي الإيجاز أي الاقتصاد الذي ينتج من استعمال هذا النّوع من الدلائل" (الحاج صالح، 2012، ص88).

كما يتناول الحاج صالح بالدّراسة أسماء الإشارة المبهمة والظّروف المبهمة بحسب منظور النّحاة القدامى، بالتّحليل واستحضار الشّواهد من حيث وضعها واستعمالها، وفي هذا كله يدّعم كلامه بقول العلامة اللّغوي الرضي الاستراباذي فيما يتعلق بأصناف الأسماء وإبهامها، الذي يرى أنّ "سائر الأسماء تكون أوّل الوضع نكرة ثم تتعرف ثم تتنكر ولا تبقى على حال (الاستراباذي، 1275هـ، ص126)" (الحاج صالح، 2012، ص86) وهو نص لم يأت به عبثا، وإنّما ليؤكد فكرة الوضع والاستعمال في اللّغة، حيث نجد فيه توّخي الترتيب السّابق في تصنيف الأسماء إبهاما واختصاصا، فيكون الاسم عاما ثم خاصّا ثم مبهما مطلقا مع زوال الابهام عند الإضافة إلى معرفة.

7. الخبر والانشاء

لقد تطرق الأستاذ الحاج صالح إلى مسألة الخبر والإنشاء في الفصل الأوّل من الباب الخامس، المعنون: "معاني الكلام في الوضع والاستعمال وفي اللّفظ والمعنى، مؤكدا على أنّ المعاني الأصلية لكل صيغة من الكلام المتواضع عليها، يعتريها

تغيـرات في مجـال الاسـتعمال، فيقـول: "إنّ المعـاني التـي سـبق أن ذكرناهـا لـكل صيغـة مـن الـكلام، هـي المعـاني التـي تخـصّ هـذه الصيّـغ في الوضـع. فهـي الأصـل في ذلـك. ويُصيبهـا تغيـير في الاسـتعمال فيكـون، مثـلا، للخـبر في الخطـاب عـدد كبـير مـن المعـاني غـير معنـى الخـبر" (الحـاج صالـح، 2012، ص169). لأنّ الغـرض الأصـلي للخـبر " إفـادة المخَاطـب الحكـم الـذي تضمّنتـه الجملـة" (الهاشـمي، 2008، ص64)، وعندمـا تتعـدد وجـوه الخـبر، يخـرج عـن حقيقتـه الأصليـة المتواضـع عليهـا إلى أغـراض بلاغيـة، تُفهـم مـن سـياق الـكلام، وهـذا لا يتـأتى إلاّ عـن طريـق اسـتعمال تلـك الصيّـغ الكلاميـة أثنـاء عمليـة التخاطـب، وهـي نفـس الفكـرة التـي أشـار إليهـا الجرجـاني في "أسرار البلاغـة"، في قولـه: "أنّ الخـبر أوّل معـاني الـكلام وأقدمُهـا، والـذي تسـتند سـائر المعـاني إليـه وتترتّـب عليـه" (الجرجـاني،1991، ص366).

كـما نجـد الحـاج صالـح يشـير إلى وظيفـة ووجـوه الخـبر بحسـب منظـور النّحـاة القدامـى، في قولـه: "أمـا الخـبر في أصـل الوضـع، فهـو عنـده كـما قـال ابـن فـارس: "إعـلام. تقـول: أخبرتـه، أخـبره والخـبر العلـم، وأهـل النظـر يقولـون: الخـبر مـا جـاز تصديقـه أو تكذيبـه، وهـو إفـادة المخاطـب أمـرا في مـاض مـن زمـان أو مسـتقبل أو دائـم [= حـاضر]... ثـمّ يكـون واجبـا وجائـزا وممتنعـا. فالواجـب قولنـا: النـار مُحرقـة، والجائـز قولنـا "لقـي زيـد عمـرا " والممتنـع قولنـا: "حملـت الجبـل" (الصاحبـي، 150)" (الحـاج صالـح، 2012، ص169). أمـا مسـألة الواجـب وغـير الواجـب عنـد النّحـاة، فيطرحهـا الأسـتاذ في شـكل تسـاؤل، مفـاده: "مـا هـي التراكيـب الواجبـة وغـير الواجبـة؟ ويُجيبنـا اسـتنادا إلى قـول سـيبويه: "ولم تكـن" ليـت "واجبـة ولا "لعـل" ولا "كان". لأنّهـا حـروف تجعـل الفعـل غـير واجـب مثـل ليـت للتمنـي ولعـل للتّرجـي. وتكـون بعـض الأفعـال غير واجبـة إذا جـاءت منسـوبة إلى المتكلـم، مثـل "ظـنّ". قـال: "أظـنّ غـير واقـع في حديثـك". كـما أنّ بعـض الحـروف اللّواحـق تكـون دائمـا مـع الفعـل غـير واجبـة كالنّـون")" (الحـاج صالـح، 2012، ص166)، وللتمييـز بـين الخـبر والانشـاء مـن حيـث مقيـاس الواجـب وغـير الواجـب، يمثلهـما أسـتاذنا في الرّسـم التوضيحـي التـالي:

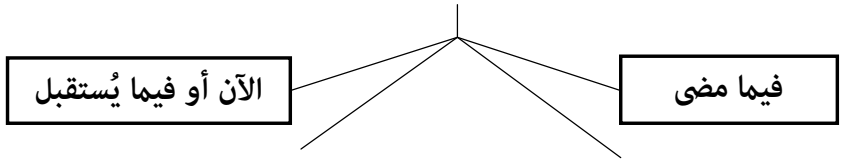

1) وقوع أو عدم وقوع الحدث معلوم= واجب: مثل: قام زيد/ لم يقم زيد = (خبر)	**1) وقوعه أو عدم وقوعه معلوم =** واجب: أقوم أو لا أقوم / الآن أو غدا (خبر)
2) وقوعه أو عدم وقوعه: غير معلوم = غير واجب: هل قام زيد؟ لا أدري هل قام زيد (استفهام)	**2) وقوعه أو عدم وقوعه: غير معلوم =** غير واجب: قُمْ / لا تقمْ / أستقوم؟ / ليتني قمت / أريد أن أقوم أمر / نهي / استفهام / تمني / منصوب بأن /

الشكل 3: المقياس العربي للفرق بين الخبر والإنشاء

هذا فيما يتعلق بالتراكيب، أما العلامات الإعرابية وما يكون فيها واجب وغير واجب، فيرى الأستاذ الحاج صالح أنّ واضع اللّغة العربية جعل علامات إعرابية بحسب هذين المقياسين "فالرّفع خصّصه للأمر الثابت الواجب وقد يكون لغير الواجب. أما النصب والجزم فهما دائما لغير الواجب (الحاج صالح، 2012، ص 167)، وفي هذا المعنى يسوق كلام السهيلي، في قوله "قال السهيلي (المتوفي في 581 هـ) فيما يخص الأفعال: الأفعال واجب وممكن ومُنتف أو ما في حكمه. فالرفع للواجب والنصب للممكن والجزم الذي هو عدم الحركة للمنفي أو ما في حكمه. هذا هو الأصل وقد يخالف (السهيلي، 91) (الحاج صالح، 2012، ص168)، وفي سياق التمييز بين المسألتين، يقول: "والفرق بينهما هو أنّ المنصوب غير حاصل، لأنّه غاية سواء كان ذلك في الاسم (المفعول به مثلا) أم في الفعل (أن يخرج). والجزم غير حاصل أيضا لأنه مُنتف تماما)" (الحاج صالح، 2012، ص 168).

8. أفعال المتكلم الإنشائية

يرى الأستاذ الحاج صالح أنّ كل خطاب فعل للمتكلم حتى الإخبار، ولهذا فرّق

جمهور اللّغة عموما بين الخبر (constative) وبين الطلب (الذي سمي فيما بعد إنشاء) (الحاج صالح، 2012، ص174)، كما نجده يشير في ذات السّياق، إلى الإنشاء الإيقاعي بحسب نظرة الأصوليين، هذه الظاهرة التي لفتت نظر أوستين Aus-tin الفيلسوف البريطاني والتي سمّاها (Performative). والإنشاء عنده بحسب المنظور القديم (إحداث شيء بالكلام) (الحاج صالح، 2012، ص175). كما أكد على إنّ الإنشاء عند سيبويه، هو (بما يبتدئه المتكلم بكلامه) مقابل ما ليس كذلك؛ كالأمر والنّهي والاستفهام. وفي تمييزه بين ما هو واقع مما يدل عليه الكلام، وبين ما هو واقع بسبب كلام المتكلم وفي وقت النطق به بالذّات، من مثل عبارات (شكرا) ومرحبا ولبّيك وغير ذلك)" (الحاج صالح، 2012، ص174). وهذه الفكرة تُحيلنا إلى كلام بيار لارشي Pierre Larcher، عندما يستحضر فكرة ابن الحاجب التي نصَّ عليها بهاء الدين السبكي في كتابه "تلخيص شروح التلخيص" بقوله: "ليس الفرق بين الخبر والانشاء في النّهاية فرق راجع إلى الوسائط المرجعية، ولكن بين عوالم مرجعية: إذ يُفهم الخبر من حيث أنه سند "إثبات ما هو في العالم الخارجي" (إخبار عما في الغير)، والانشاء على أنه "إثبات ما هو في العالم الداخلي (المتعلق بالمتكلم)" (إخبار عما في الباطن) ويرد هذا التحديد ضمنيا عند ابن الحاجب في كتابه "الأمالي" الذي أشار إليه البلاغي بهاء الدين السّبكي"[15]

(Larcher, 2014, p.56).

ونجد الأستاذ الحاج صالح، في موضع آخر عندما يميّز بين الخبر والإنشاء، يؤكد على أنّ كليهما أفعال كلامية خطابية (الحاج صالح، 2012، ص177)، وهذا يحيلنا إلى تصنيف أوستين للأفعال الكلامية، وحين نتحدث عن الفعل نقصد به الحدوث والوقوع، ومن ثمّ إنجاز الأفعال بمعنى الإنشاء والابتكار، وعليه فالإنشاء؛ ما يحصل مدلوله في الخارج بالكلام المقصود، وهذا المعنى للإنشاء هو الذي يقدمه أوستين؛ فنحن ننجز الأشياء بالكلام؛ أي نخرجها من حيّز العدم إلى الوجود (أدواري، 2011، ص73)، من خلال فعل القول، والفعل المتضمن في القول، والفعل الناتج عن

القـول، وهـي ليسـت أفعـالا ثلاثـة يسـتطيع المتكلـم أن يؤديهـا واحـدا تلـو الآخـر، بـل هـي جوانـب لفعـل واحـد (نحلـة، 2006، ص67).

كـما يـرى الحـاج صالـح أنّ الـكلام الإنشـائي هـو أيضـا خـبر، مؤكـدا مـا قالـه النّحـاة "بـأنّ كل كلام هـو إخبـار مهـما كان المعنـى المقصـود منـه. فالجملـة المفيـدة هـي التـي يسـتفيد منهـا المخاطـب شـيئا. وهـذا لا يمنـع أن يكـون لهـا معنـى آخـر. أمـا الإنشـائية مثـل الإيقاعيـة، فهـي في الوقـت نفسـه إخبـار بمـا حصـل مـن إرادة المتكلـم وتحقيـق هـذا الـكلام" (الحـاج صالـح، 2012، ص178).

خاتمة

إنّ مسـألة الوضـع والاسـتعمال، عالجهـا الأسـتاذ عبـد الرحمـن الحـاج صالـح باتبـاع اسـتراتيجية تداوليـة، توخـى فيهـا التـدرج المنهجـي في تنـاول القضايـا اللّغويـة المتعلقـة بـكل مـن الوضـع والاسـتعمال في اللّغـة، إذ بـدأ بتحديـد كل مـن مصطلـح الوضـع والاسـتعمال بحسـب نظـرة النّحـاة القدامـى، ومنـه انتقـل إلى التّمييـز بـين اللغـة كنظـام مـن الرمـوز المتواضـع عليهـا، والـكلام مـن حيـث هـو حـدث، فقابـل بـين النّظـام المنطقـي الـذي يختـص بالرمـوز اللّغويـة، وبـين النّظـام اللّغـوي الـذي يختـص بتوظيـف تلـك الرمـوز اللغويـة في عمليـة التخاطـب والإفـادة.

وتوخيّـا لمراتـب أقسـام الـكلام، بـدأ أسـتاذنا كلامـه عـن الحـروف أو الأصـول، التـي يتـم وضعهـا بطريقـة مخصوصـة لتأديـة المعـاني المختلفـة، حتـى ولـو كانـت مبهمـة، فإبهامهـا نسـبي مـن حيـث صلاحيتـه لأن يكـون عامـا في الاسـتعمال مـن جهـة، وخاصّـة في حـالات معيّنـة مـن جهـة أخـرى. والحـال كذلـك بالنسـبة إلى الأسـماء، فهـي كـما ذكرها أصنـاف؛ فهنـاك الأسـماء المختصـة المبهمـة في الجنـس، والمبهمـة في الوضـع فقـط وهـو غـير مبهـم أبـدا في الاسـتعمال ولا يـزول الابهـام عنـه إلا بقرينـة، وهـو مـا سـمّاه سـيبويه بالدلائـل المبهمـة وكـذا المبهمـة إبهامـا مطلقـا ومـن نوعهـا إبهـام حـروف المعـاني. هـذا ورأينـا كيفيـة انتقـال اسـم العلـم مـن حـال النكـرة إلى المعرفـة داخـل الاسـتعمال، وكيـف يدخـل عليـه العـدد، فيصـير كأيّ اسـم عـام.

وتبعا للتّدرج المنهجي من الوقوف عند المبهم ثم المختص، فالأسماء النّكرة التي تصير معرفة بقرائن معنوية أو لفظية، توصلنا إلى مستوى آخر يندرج ضمن التّوجه التّداولي، الذي أفاض فيه الكثير من الدارسين الغربين، ألا وهو المضمر l'implicite الذي لا يتحقق وجوده إلا بحضور المتخاطبين وتكمن أهمية وظيفته في عملية التبليغ وما تحققه من اقتصاد لغوي في الاستعمال.

- والكلام المفيد بالوضع عند الأستاذ الحاج صالح، يتمثل في ثنائية الخبر والإنشاء، التي هي الأخرى وضّحها بحسب نظرة علماء اللّغة القدامى وفي مقدمتهم سيبويه، مع التأكيد على إنّ كل كلام هو إخبار بمختلف الوجوه والأشكال التي يرد فيها.

الإحـالات

1- تجـدر الإشـارة في هـذا السـياق أنّ دوسوسـور ميّـز هـو الآخـر بـين لسـانيات الوضـع ولسـانيات الاسـتعمال، وهـذا في الفصـل الرابـع مـن كتابـه المعنـون «Linguistique de la langue et linguistique de la parole»، وهـذا حـين يقـر أنّ كل مكوّنـات اللّغـة التـي تشّـكل الـكلام ترتبـط ارتباطـا وثيقـا بعلـم اللّغـة. والنّـص في لغتـه الأصليـة:

«Tous les autres éléments du langage, qui constituent la parole, viennent d'eux mêmes se subordonner à cette première science »Ferdinand de Saussure, cours de linguistique générale, éd. Charles Bally, Albert Sechehaye et Albert Riendinger, Payot, Paris, 1971, p.37.

2- قـول الحـاج : "اسـتعمل سـيبويه هـذه اللفظـة كثـيرا ويقابـل الابهـام عنـده الاختصـاص في جميـع السـياقات. قـال عنـد كلامـه عـن التمييـز والمضـاف إليـه "لي عـشرون" فقـد أبهمـت الأنـواع، فـإذا قلـت "درهـما" فقـد اختصصـت نوعـا... فكـذا "مثلـه" هـو مبهـم يقـع عـلى أنـواع (288/1). يُنظـر: (الحـاج صالـح، 2012، ص77). ويقـول ابـن مالـك:

الاختصاص كِنداءٍ دونَ يا كأيُّها الفتى بِإثرِ " أرْجُونِيا"

وقد يُرى ذا دونَ " أيٍّ تِلوَ" ألْ كمِثلِ " نحنُ العُرْبَ أَسْخى مَنْ بَذَلْ"

والاختصـاص يشـبه النـداء لفظـاً ويخالفـه مـن ثلاثـة أوجـه: أحدهـما: أنـه يُسـتعمل معـه حـرف نـداء.

والثاني: أنّه لابدّ أن يسبقه شيء.

والثالث: أن يصاحبه الألف واللام.

وذلـك كقولـك: "أنـا أفعـلُ كـذا أيُّهـا الرّجـل، ونحـن العُـرْبَ أسـخى النّـاس، وقولـه صـلى عليـه وسـلم: "نحـنُ معـاشِرَ الأنبيـاء لا نُـورَثُ، مـا تركنـاه صدقـةٌ" وهـو منصـوب بفعـل مضمـر، والتقديـر: "أخُـصُّ العـربَ، وأخـصّ معـاشرَ الأنبيـاء". ينظـر: (ابـن عقيـل، 1992، ص457-456).

3- العبـارات: يُقصـد بهـا الأمثلـة الـواردة في هـذا النـوع مـن الابهـام لسـيبويه وغـيره مـن النّحـاة: كقـول المـبرد: "مـررت برجـل مثلـك... كيـف يكـون "المثـل" نكـرة وهـو مضـاف إلى معرفـة هـلا كان كقولـك "مـررت بعبـد اللـه أخيـك؛ فالجـواب في ذلـك: أنّ الإخـوة مخطـورة، وقولـك: "مثلـك" مبهـم مطلـق، يجـوز أن يكـون "مثلـك" في أنكـما رجـلان أسـمران" فالتقديـر في ذلـك التنويـن، كأن يقـول: "مـررت برجـل شـبيه بـك ومـررت برجـل مثـل لـك". (المـبرد، 1385-1388هـ، ص 286-287)، وقـال: "فأمـا مـررت برجـل غـيرك فـلا يكـون إلا نكـرة لأنـه مبهـم في الثـاني أجمعـين" (288/4). يُنظـر:

(الحـاج صالـح، 2012، ص78).

4- من قبيل: رجل وحجر ودار.

5- النّص في لغته الأصلية:

- la différence entre le ¡abar et le ’inšã n’ étant plus in fine une différence entre modes de référence mais entre mondes référés: le ¡abar est alors compris, en effet, comme le support d’une «assertion sur le monde extérieur» (’i¡bᾱr ’mmã fi al- hãrig) et le ’inšã ’ comme celui d’une «assertion sur le monde intérieur (celui qui parle)» (’i¡bᾱr ’ammã fi al-bᾱtin). Cette réduction est implicitement esquissée par Ibn- al -Hᾱgib lui-même dans ses Amᾱli (cités par le rhétoricien Bahᾱ’ al-Din al- Sᾱbki, m. 773/ 1371, dans le commentaire qu’il a fait du Tal¡is, Šuruh al- Talhis, 2, p. 236).

قائمة المصادر والمراجع

باللغة العربيّة:

- أدواري، العياشي. (2011). الاستلزام الحواري في التداول اللّساني. ط1. منشورات الاختلاف. الجزائر.
- الجرجاني، عبد القاهر. (1989). دلائل الإعجاز. تحقيق: محمود محمد شاكر. ط2. مكتبة الخانجي. القاهرة. مصر.
- الجرجاني، عبد القاهر. (1991). أسرار البلاغة. تحقيق: محمود محمد شكر. ط01. مطبعة المدني. القاهرة. مصر.
- الحاج صالح، عبد الرحمن. (2012). الخطاب والتخاطب في نظرية الوضع والاستعمال العربية، المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية. وحدة الرغاية. الجزائر.
- الحاج صالح، عبد الرحمن. (1997). "النّحو العربي والبنوية". أُلقي هذا البحث في مجمع اللغة العربية بالقاهرة. مصر.
- الحاج صالح، عبد الرحمن. (1989). "المدرسة الخليلية ومشاكل معالجة العربية بالحاسوب"، بحث أُلقي في مؤتمر اللّغويات الحاسوبية بالكويت، ضمن كتاب: بحوث ودراسات في اللّسانيات العربية.
- الحاج صالح، عبد الرحمن. (2005). "النّحو العربي ومنطق أرسطو". مجلة كلية الآداب. جامعة الجزائر. مجموع ضمن كتاب بحوث ودراسات في اللّسانيات العربية. العدد 01.
- حسنين، صالح. (2011). دراسات في علم اللّغة الوصفي والتاريخي والمقارن. ط2. مكتبة الآداب. القاهرة. مصر.
- الاستراباذي، الرضي. (1275ه). شرح الكافية. اسطنبول. تركيا.
- سيبويه، عمرو بن عثمان. (1408هـ - 1988م). الكتاب. تحقيق: عبد السلام هارون. الجزء الأول. ط3. مكتبة الخانجي. القاهرة. مصر.
- لوصيف، الطاهر. (2006م). "التداولية اللّسانية"، مجلة اللّغة والأدب. عدد 17.

جامعـة الجزائـر. الجزائـر.

- المـبرد، محمـد بـن يزيـد.(1385 - 1388 هــ). المقتضـب. تحقيـق: محمـد عبـد الخالـق عضيمـة. المجلـس الأعـلى للشـؤون الإسـلامية. القاهـرة.
- نحلـة، محمـود. (2006). آفـاق جديـدة للبحـث اللغـوي المعـاصر. ط1. دار المعرفـة الجامعيـة. الاسـكندرية. القاهـرة.
- الهاشـمي، أحمـد. (2008). جواهـر البلاغـة في المعـاني والبيـان والبديـع. تحقيـق: محمد التّونجـي. ط04. مؤسسـة المعـارف. بـيروت- لبنان.

باللغة الأجنبية:

- De Saussure, ferdinand. (1971). cours de linguistique générale. éd. Charles Bally, Albert Sechehaye et Albert Riendinger. Payot. Paris.
- Larcher, pierre. (2014). Linguistique arabe et pragmatique. éd. Presses de L'Ifpo. Damas Beyrouth.